خالد بن يزيد بن معاوية

عبد الرزاق حميده
الأستاذ بكلية دار العلوم

لا نجد كتابا تحدث عن نشأة العلوم فى الإسلام إلا نسب إلى خالد ابن يزيد الفضل الأول فى الاشتغال بالعلوم - وخاصة الكيمياء - وتوجيه أنظار المسلمين وأذهانهم إليها قبل أن يجىء عصر الترجمة والنهضة العلمية فى أيام العباسيين :

يقول عنه الجاحظ فى البيان والتبيين : إنه كان « خطيبا شاعرا، وفصيحا جامعا ، وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء .»

ويقول ابن النديم فى الفهرست إنه « عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة، وكان خطيبا شاعرا ، فصيحا ، حازما . وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه : كتاب الحرارات . كتاب الصحيفة الكبير - كتاب الصحيفة الصغير - كتاب وصيته إلى ابنه فى الصنعة » .

أما ابن خلكان فيقول عنه : « إنه كان من أعلم قريش بفنون العلم ، وله كلام فى صنعة الكيمياء والطب ، وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لها ، وله رسائل دالة على معرفته وبراعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان

يقال له « مريانس » ، وله فيها ثلاث رسائل ، تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانس ، وصورة تعلمه منه ، والرموز التى أشار إليها » .

ويقول عنه ياقوت فى معجم الأدباء . « ومما نسبوا إليه من التصانيف فى الكيمياء : السر البديع فى فك الرمز المنيع .

وظاهر من هذا أن المؤرخين مجمعون على أنه أول من اشتغل بالصنعة ـ الكيمياء ـ . ونخلص من أقوالهم بمايأتى :

(١) أن خالدا ترجم كتبا فى الكيمياء عند الجاحظ ، وترجمت له عند ابن النديم ، ولا خلاف بين القولين . فالمراد بالترجمة أن بعض المشتغلين بهذه الصنعة من الأعاجب المقيمين بالشام قد ساعده على نقل بعض المعارف اليونانية فى الكيمياء وكان لخالد فضل توجيههم إلى هذه الترجمة وتشجيعهم عليها .

(٢) وأنه اتصل بمريانس يتعلم منه هذه الصنعة فحاول أن يكون عالما لا مشجعا فقط .

(٣) أما الكتب التى تنسب إليه فقد قرر ابن النديم أنه رأى بعضها ، ونحن نعتمد عليه كثيراً . ولا نستطيع أن نرفض ما يقوله هنا ولكن لنا أن نفهم فى هذه الكتب أنها كانت مجموعة صغيرة من الأوراق موضوعاتها مختلفة ، فكانت منها هذه الكتب . وهذا يناسب حالة العلوم فى الدولة الإسلامية فى ذلك العهد .

أما أهمية هذا العمل من الناحية اللغوية أو الأدبية فهى أن البدء بالترجمة والتأليف فى هذه الناحية العلمية فتح أفقا جديدا أمام الأساليب العربية وساعد على اتجاه الكتابة إلى الأسلوب العلمى الذى يعنى بالحقائق ، ويتجنب الزخرف ، ويضع المصطلحات ، ويخص بعض العلوم ببعض الأساليب والكلمات ، وساعد على نقل بعض طرق التفكير والبحث إلى ميدان الثقافة العربية ، فشارك العلوم اللسانية والدينية فى وضع أسس اللغة والأساليب العلمية عند العرب .

* * *

لكن ما الذى حمل خالدا على الاشتغال بهذه العلوم والعناية بها وترجمتها؟ لا شك أن استعداده ومحبته لطريقتها فى البحث أو ميله إلى ما تعالجه من موضوعات كان السبب الأول - وأقول هذا على الرغم مما يقال من أنه كان يبغى الوصول إلى الذهب عن طريق هذه الصنعة ليشترى به قلوب الناس ويستعين به على استرداد الخلافة من بنى مروان - وأضيف إلى هذا أن اتصاله بعلماء السريان سهل له الاستعانة بهم فى كثير مما يحتاج إليه للاشتغال بهذا العلم. ولعلهم أمدوه بالآلات والمعلومات والمساعدين، وقد يكون حرمانه الخلافة بعد أن كانت قريبة منه سببا صرفه إلى الاشتغال بهذه الصنعة ليشغل نفسه عن اللهو من جهة، وعن المنافسة فى الخلافة من جهة أخرى، بعد أن رأى ما أصاب غيره من الخارجين عليها كعمرو بن سعيد.

. . .

وقد اشتغل بالعلوم الأجنبية أو استفاد منها قوم من العرب اتصلوا بالثقافة الأجنبية قبل خالد، وفى ترجمة الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور أنه عرف طب الفرس ورحل إلى بلادهم، وتعلم فى مدرسة جنديسابور. وكذلك ابنه النضر بن الحارث. وكان طبيعيا فى المدارس والأديرة الموجودة فى الشام والعراق التى كانت تشتغل بالمسائل الدينية والعلمية على آثار اليونان والرومان أن تجذب بعض العرب إليها وأن يكون اهتمامهم بها أشد وأعظم بعد أن صاروا دولة متحضرة تتخذ حاضرتها فى دمشق الشام تلك المدارس.

. . .

أما الناحية التى يكتفى المؤرخون بالاشارة إليها فى خالد، فهى الناحية الأدبية، ولكنهم مجمعون على أنه كان فصيحا شاعرا خطيبا حازما جيد الرأى. وليس شىء من ذلك غريبا على حفيد معاوية. غير أن ما بقى من أخباره وأدبه قليل ومنثور فى كتب متفرقة يشهد له بالتقدم فى كل ماسبق.

أوشك أن يكون خليفة بعد موت أخيه معاوية الثانى لكن وجود

ابن الزبير فى الحجاز جعل الناس يعدلون عنه لصغر سنه ، وأبوا أن ينافسوا به وهو شاب ، الخليفة الشيخ عبد الله بن الزبير فى الحجاز ، فتخطوه الى مروان بن الحكم وإن لم ينسوه فى ولاية العهد أول الأمر . ثم حرمها وانتقلت إلى عبد الملك بن مروان . وكان خالد يشغل مروان بن الحكم فأراد أن يذله كى لايثور عليه ، واستشار أصحابه فيما يفعل فأشاروا عليه أن يتزوج أمه ليذله ويخضعه ففعل . وكان مروان سريع العيب بذىء اللسان . وجادله خالد يوما فسب أمه ففضب وتغيظ ، وذهب إلى أمه حزينا مهتما وأخبرها الخبر ، فطيبت خاطره ، وأخبرته أنه لن يعود لمثلها أبدا ، وعزمت على الانتقام . فلما جاءها مروان أوعزت إلى الجوارى أن يكتمن أنفاسه بالوسائد إذا نام ففعلن فوجد ميتا فى فراشه . وعرف عبد الملك بذلك ، فهم بقتلها ولم يمنعه إلا الحياء أن يشيع أنه قتل أمرأة بأمير المؤمنين .

* * *

ولخالد مع عبد الملك مناظرات تدل على فصاحته وحضور بديهته : قالوا إن عبد الملك هدده مرة بالسطوة والحرمان ، فقال له خالد : أتهددنى وبدالله فوقك مانعة ، وعطاؤه دونك مبذول !

أما أطول المناظرات المروية بينه وبين عبد الملك فهى التى كانت بشأن سباق بين عبد الله بن يزيد أخى خالد وبين الوليد بن عبد الملك ، روى أن أخاه عبد الله بن يزيد أجرى الخيل مع الوليد بن عبد الملك فسبقه .

فدخل الوليد على خيل عبد الله فنفرها ولعب بها فجاء عبد الله إلى أخيه خالد فقال له : لقد هممت اليوم بقتل الوليد بن عبد الملك . فقال له خالد مستنكرا : بئس ماهممت به فى ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ! فقال عبدالله : إنه لقى خيلى فنفرها وتلاعب بها ! فقال له خالد أنا أكفيكه . ثم دخل على عبد الملك وعنده الوليد فقال له : يا أمير المؤمنين إن الوليد ابن أمير المؤمنين لقى خيل ابن عمه عبد الله فنفرها وتلاعب بها فشق ذلك على عبد الله .

فرد عبد الملك عليه ردا فيه عز السلطان وسطوة الملك إذ تمثل بقول ملكة سبأ كما يحكيه القرآن الكريم : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » . فغاظ الرد خالداً وأثاره ، فأجابه جوابا أقسى وأشد ، وعمد إلى المعين الذى أخذ منه عبد الملك وهو القرآن الكريم ، فكان فى حضور بديهته قوى الجواب قاسى الرد ، قال مقتبسا : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

لم يقنع عبد الملك بما سمع ولكنه تراجع وكان لبقا فى تراجعه فقال : « أما والله نصم المرء عبد الله ، على لحن فيه » ! فقال له خالد : « أفعلى الوليد تعول مع اللحن ؟ » فقال عبد الملك : « إن يكن الوليد لحانا فأخوه سليمان » . قال خالد : « وإن يكن عبد الله لحانا فأخوه خالد » . فكان تتبعه لطريقة عبد الملك دليلا على منطقه المفحم لخصمه ، لأنه من جنس حجته . ثم قال له عبدالملك : « مدحت والله نفسك ياخالد » ، قال : « وقبلى والله مدحت نفسك يا أمير المؤمنين » . قال : ومتى ؟ قال : « حين قلت : أنا والله قاتل عمرو بن سعيد ، حق والله لمن قتل عمراً أن يفخر بقتله » ! قال عبد الملك : « أما والله لعمرو كان أطولنا باعا ! » . قال خالد : « أما والله إنى أرى ثأرى فى مروان صباح مساء ، ولو أشاء أن أديله لأدلته ـ يريد أخذه للخلافة منهم ـ قال عبد الملك يفض النزاع بعد أن أفحمه البيان والبديهة الحاضرة : ما أجرأك على ياخالد ! خلنى عنك . قال : لا والله . قال الشاعر :

ويجر اللسان من أسلات الحر ب مالا يجر منها البنان

فأحس عبد الملك أن الرفق أولى ، والتودد أملك للقلب ، فقال لابنه الوليد : ياوليد : أكرم ابن عمك ، فقد رأيت أباه يكرم أباك ، وجده يكرم جدك .

ولو نقل الينا التاريخ كل ما كان له من أدب لرأينا مثالا من

أمثلة الفصاحة العربية فى حضور بديهتها ، وسداد جوابها ، ولعله اكتفى بشاهد من فصاحته ليكون دليلا على ما بعده .

* * *

وإذا نظرنا اليه نظرة أخرى بعيدة عن العلم والسياسة رأينا رواة أخباره ينقلون عنه ما يدل على أنه كان يحسن الموعظة والتذكير كما يفعل الصالحون ، فقد سئل : ما أقرب شيء ؟ قال الاجل . قيل له : فما أرجى شيء ؟ قال : العمل . قيل فما أوحش شيء ؟ قال : الميت . قيل : فما آنس شيء : قال : الصاحب المؤاتى ذو المساعد »

وقيل له : ما الدنيا ؟ قال : ميراث . قيل . فالايام ؟ قال : دول . قيل : فالدهر ؟ قال : أطباق — أحوال — والموت يكمل سبيله ، فليحذر العزيز الذل ، والغنى الفقر ، فكم عزيز قد ذل ، وكم من غنى قد افتقر .

ولعل هذا القول الشبيه بأقوال الحكماء يدلنا على جانب آخر من صفاته وأخلاقه يشير اليه ياقوت الحموى فى معجم الادباء رواية عن ابن حاتم إذ يقول : « كان خالد من الطبقة الثانية من تابعى أهل الشام ، وقيل أنه روى الحديث عن أبيه وعن دحية بن خليفة الكلبي رضى الله عنه ، وروى عنه الزهرى وغيره ، وأخرج البيهقى ، والخطيب ، البغدادى ، والعسكرى ، والحافظ بن عساكر عنه عدة أحاديث .

ولا أدرى كيف نوفق بين هذا القول الذى يجعل يزيد بن معاوية راويا من رواة الاحاديث وبين ما عرف عنه من لهو وشراب . ويعتمد روايته أولئك المحدثون والمؤرخون ! إنها مسألة تدعو إلى التساؤل والتحقيق . ولو اقتصر نقلهم عن خالد لكان أهون .

* * *

قيل عن خالد إنه كان من صالحى القوم ، وكان يصوم الجمعه والسبت والاحد ، وكان جوادا ممدحا ، يقدر الادب ويثيب عليه ، جاءه رجل فقال له : إني قد قلت فيك بيتين ولست أنشدهما إلا بحكمى : فقال له قل فقال :

سألت الندى والجود : حران أنتما فقالا : بلى ، عبدان بين عبيد
فقلت : ومن مولاكما . ؟ فتطاولا على ، وقالا : خالد بن يزيد

فقال له تحكم . فقال : مائة ألف درهم فأمر له بها .

ويروى له شعر فى التذكير بالموت يقول فيه :

أتعجب أن كنت ذا نعمة وأنك فيها شريف مهيب
فكم ورد الموت من ناعم وحب الحياة إليه عجيب
أجاب المنية لما دعت وكرها يجيب لها من يجيب
سقته ذنوبا من أنفاسها ويذخر للحى منها ذنوب

أما الأبيات التى نسبتها إليه مشهورة ، فى قوله فى زوجته رملة بنت الزبير بن العوام :

أليس يزيد السير فى كل ليلة وفى كل يوم من أحبتنا قربا ؟
أحن إلى بنت الزبير وقد عدت بنا العيس خرقا من تهامة أو نقبا
إذا نزلت أرضا تحبب أهلها إلينا ، وإن كانت منازلهم حربا
وإن نزلت ماء - وإن كان قبلها مليحا - وجدناه ماء باردا عذبا
تحول خلاخيل النساء ولا أرى لرملة خلخالا يحول ولا قلبا
أقلوا على اللوم فيها فانني تخيرتها منهم زبيرية قلبا
أحب بنى العوام طرا لحبها ومن حبها أحببت أخوالها كلبا

ومات فى خلافة الوليد بن عبد الملك بعد أن ترك له ذكرا خالدا كاسمه فى تاريخ العلوم العربية ونشأتها . كما ترك للادب ومؤرخيه فرصة للحديث عن بيانه وفصاحته .

عبد الرزاق حميدة
الاستاذ بكلية دار العلوم